

دلالة المرأة الأم الاجتماعية في شعر السياب بين الواقع والرمز

The social significance of the mother woman in Al-Sayyab's poetry between reality and symbol

عبد القادر قدار^{*1}

جامعة الجبالي بونعامة – خميس مليانة (الجزائر)، a.keddar@univ-dbkm.dz

تاريخ الاستلام: 2022/02/28 تاريخ القبول: 2022/03/12 تاريخ النشر: 2022/03/30

ملخص:

تتناول هذه الدراسة التي وسمناها بـ: "دلالة المرأة الأم الاجتماعية في شعر السياب بين الواقع والرمز" ظاهرة فنية أدبية كان حضورها لافتا وبارزا في أشعار السياب، وهي ظاهرة "الأم" أو "الأمومة" التي جسدها -أداء لغويا- صيغة (أم) أو صيغ أخرى موحية بها الأمر الذي أدى إلى ظهورها بصور وأشكال مختلفة ومن ثم دلالتها على معان شعرية عديدة، وقد اختارت هذه الدراسة الدلالة الاجتماعية للألفاظ الدالة على الأمومة في شعر بدر شاكر السياب.

الكلمات المفتاحية: الأمومة، الأم، الإحساس بـ النحن، النمط، الموضوع، المثال الأعلى، التسامي، التماهي.

Abstract:

This study deals with what we called "The social significance of the mother woman in Al-Sayyab's poetry between reality and symbol" A literary artistic phenomenon whose presence was remarkable and prominent in Al-Sayyab's poems, and it is the phenomenon of "The Mother" Or "motherhood" which is embodied by a linguistic performance of the form (mother) or other forms suggestive of it. It is what led to its emergence in different forms and shapes, and then its indication of different poetic meanings. This study has chosen the social significance of the words denoting motherhood in the poetry of BadrShakir Al-Sayyab.

Keywords: Motherhood, mother, sense of we, the pattern, Topic, the highest example, sublimation , identification.

1. مقدمة:

إن اطلاعنا على إنتاج السياب الشعري يثير فينا العديد من المشاعر والأحاسيس، والقيم بالنظر إلى ما يتضمنه من ظواهر فنية وقيم دلالية غنية وثرية، بل إن الشعر السيابي يشكل ظاهرة فنية وجمالية ينبغي على الدارس المهتم الوقوف عندها لتأمل مظاهرها وخبائرها للكشف عن أسرارها وأبعادها، ولعل من بين ما يستدعي اهتمام الدارس ويستهوئ طموحه البحثي لفظة "الأم" هذه الإشارة اللغوية التي تجاوزت دلالتها المعجمية إلى دلالات إيحائية مختلفة نتجت عن التوظيف الفني/الشعري لها ومن ثم اندماجها مع عناصر أو مكونات البناء/ الشكل الفني للقصيدة السيابية، وقد انتقل بها الشاعر من بعدها الواقعي/الحياتي، كونها شكلت جانبا هاما من تجربة السياب الواقعية في مرحلة طفولته، إلى بعدها الفني الشعري مما عمق مدلولاتها وأثرى قيمها الدلالة على المستويين الفردي والجماعي.

لعل ما تبينه قراءتنا لهذا الصوت الدال- الأم وما في معناها- في المتن الشعري السيابي، والملاحظ أن فقدان السياب لأمه- في طفولته المبكرة- قد رسم ملامح شخصيته وكذا ملامح تجربته الشعرية علما بأن السياب ظل يذكر أمه في شعره حتى أواخر حياته.

2. أيقونة الأم وجدل الحضور والغياب:

إن أول صدمة عاشها السياب في حياته فقدانه لأمه ومنذ طفولته، ولذلك راح يبحث عن هذه الأم المفقودة كما سعى إلى تحقيق ذاته من خلال البحث عما يعوض هذه الأم المفقودة من خلال بدائل مختلفة لتعويض عاطفة الأم وحنانها المفقود غير أنها لم تحقق التعويض المأمول والمنتظر.. ولذلك عاد السياب إلى صور ماضية- طفولته- وطفولته هي جيکور- والأم، وكانت صورة الأم أقوى صور الماضي يقظة في نفسه" (عبد الكريم حسن، 1983، ص318) ومن هنا، فإن صورة الأم تنهض تعبيرا عن الحنان المفقود في حياة الشاعر، على أن ذكره لأمه يشتد في المرحلة الأخيرة من تجربته الشعرية (المرحلة الذاتية المأساوية). وقد اشتد طلب الشاعر لأمه وتعلقه بها أثناء غربته خارج مجتمعه العراق حيث يعود إليه هاجس الحنان الأمومي المفقود. وإذا أمعنا النظر في توظيف السياب لكلمة "أم" أو عاطفة "الأمومة" في شعره، نجد أن هذا التوظيف أو الحضور يتفاوت من مرحلة إلى أخرى تبعا لاختلاف مرحلة عن أخرى

من ناحية ما يطبع نفسية السياب من حاجيات غير مشبعة، ومن ناحية الظروف الموضوعية العامة، وكما تمت الإشارة أعلاه، فإن اللافت للانتباه أن ذكر السياب لأمه يزداد بالباحث شديد في المرحلة الأخيرة من تجربته الشعرية (شناشيل ابنة الجلبي وإقبال) حيث يقول عبد الكريم حسن: "وفيما يتعلق بحقل الأم في هذه المرحلة: المرحلة السابقة (شناشيل ابنة الجلبي وإقبال) فإننا نلاحظ إلحاحاً شديداً من السياب على ذكر أمه في هذه المرحلة" (إحسان عباس، 1983، ص 107). ولكلمة "أم" في شعر السياب أنواع وأشكال يمكن تصنيفها إلى: الأم البشرية (أم السياب، أم الأطفال اليتامى، وأم الشهيد، والأم)، والأم غير البشرية (أم الحيوان، الأم الأسطورية، الطبيعة أو الأرض، الأم/ الوطن الأم. وإذا عدنا إلى القصائد التي وظفت الأمومة نجد أن هذا التوظيف يتجلى لنا في مظهرين، يكون الأول بذكر الأم- أم السياب - صراحة بلفظ "أم"، ويكون الثاني باستخدام ألفاظ أو تعابير دالة على الأم دلالة إيحائية أو رمزية (السراب، التراب، التلال، الموتى، القبر أو اللحد، جيکور، الروح، النخيل، بويب..). والملاحظ أن القصائد المتضمنة للألفاظ المرموز بها إلى الأم أغلبها منظوم في المرحلة الأخيرة من تجربة السياب الشعرية، والملاحظ كذلك أن الألفاظ الرامزة والموحية بالأمومة وفيرة في ديوان السياب (المعبد الغريق) يليه ديوان (أنشودة المطر " ثم " أزهار " ذابلة " و " أساطير " وأخيراً ديوانا " منزل الأبقان (وشناشيل ابنة الجلبي وإقبال).

إن تحديد أشعار السياب المتضمنة للفظ "أم" أو عاطفة الأمومة من خلال الأداء اللغوي الصريح أو الرمزي والإيحائي يقودنا إلى استخلاص هام وهو أن "الأمومة" في شعر السياب لم تظهر في صورة واحدة وإنما في صور ومظاهر أو أشكال مختلفة، وعلى العموم إنها ترد في خمس صور، هي: الأم المفقودة/ الأم الحقيقية، الجدة الأم، الزوجة الأم، الحبيبة الأم، الأرض الأم. إذا، إن توظيف الشاعر السياب للفظ "أم" - صراحة أو ضمناً - لا يقصد دلالتها الأصلية/ المعجمية فحسب، بل إنه أضفى عليها دلالات أخرى بعدما امتزجت بتجربة الشاعر ووجدانه، لذلك، إنه عبر من خلالها عند رؤاه الفنية إزاء واقعه الحياتي بأبعاده النفسية والاجتماعية والسياسية والحضارية والوجودية، أي: إن السياب اتخذ اللفظ أو الألفاظ الدال على الأمومة وسيلة للتعبير عن أفكاره وآرائه فأثرت تجربته الشعرية، وبالتالي أصبحت

للأمومة في شعر السياب قيم وأبعاد فكرية مختلفة: المدلول العاطفي الوجداني، المدلول الاجتماعي، المدلول السياسي، المدلول الحضاري، والمدلول الوجودي: مع الإشارة إلى أن هذه المدلولات ليست من أهداف هذه الدراسة ومقاصدها إن ما رامت مناقشته- على وجه الخصوص- البعد أو القيمة الاجتماعية للأمومة.

إن الإبداع الأدبي -في الأساس- إنجاز فردي تنتج ذات واحدة والدوافع إليه كثيرة، غير أن أهمها التعبير عن مشاعر الأديب وأفكاره لأن بواعث النشاط الإبداعي تتعلق بعوامل داخلية عميقة فالفنان الموهوب لا يبدع الاستجابة لنداء عقله وقلبه، لكنه رغم ذلك لا ينكفي على ذلك ويقتصر عليه، بل "يسمو عليه ويستجيب لنداء زمانه وشعبه، والإنسانية بأسرها يعني أن الدافع الذاتي إلى الإبداع منوط بالمطلب المجتمعي (حسين جمعة، 1983، ص64). إذا، بالإضافة إلى أن الأدب تعبير عن ذات فردية يصور عواطفها وانفعالاتها وميولها ورغباتها، فهو كذلك تعبير يصور مواقف هذه الذات الفردية من الواقع الخارجي الذي تتصل به وتحتك بأحداثه ووقائعه، لأنها جزء وعنصر يشكل مركبه وبنيته. ومن هنا، كان الإبداع الأدبي تعبيراً عن العالم الخارجي، وبضمنه الواقع الاجتماعي باعتبار أن "الذاتي يخلق الموضوعي وأن العالم الداخلي للذات العارفة هو أساس صورة العالم الخارجي لديها" (شكري عزيز ماضي، 1984، ص39).

يتضح من ذلك أن الجانب الذاتي في الإبداع الأدبي يكون ذا دلالة موضوعية عامة وهذه الدلالة لا تكون ذات طابع فردي مميز لا يتكرر، والفنان هو الإنسان القادر على صقل انطباعاته الشخصية- الذاتية والعثور فيها على ما هو موضوعي وذو دلالة عامة. وبتعبير آخر، إن الفن الأدبي تصور لأعماق صاحبه النفسية ونتاج أسرار الشخصية المبدعة وموروثاتها الخفية مثلما هو صورة للواقع الذي يعرضه، على أن الموضوعية أو الواقعية هنا، هي- كما يرشيلينج schelling "هي التي تؤكد اللا أنا- أي ما هو خارج الذات" (روجيه باستيد، 1982، ص99).

بناء على ذلك، نروم من خلال هذه الدراسة استنتاج الدلالة الاجتماعية المطمورة للفظـة "أم" أو ما ينوب عنها من ألفاظ أو صيغ لغوية أخرى صريحة أو موجبة بها، أي تلك الدلالة التي لم يصرح بالشاعر.. مع وضع في الاعتبار أن بحثنا عن البعد/الدلالة الاجتماعية للأمومة في شعر السياب ينطلق من أن "الأم" مصدر أول

لذلك الثراء النفسي الذي تحتويه نفسية المولود من مشاعر وتعلقات عاطفية وميول واتجاهات علما بأن للأمومة جملة من الطاقات والنزعات الطبيعية تجعلها قادرة على التعامل مع الآخرين والاندماج مع المجتمع. وكما أن للأم دورا كبيرا في توجيه سلوك الطفل وتقويمه، ولهذا، كان من الطبيعي أن يستمر هذا التواصل بين الطفل والأم انطلاقا من أن محبته لأمه تترسخ في ذهنه ولا شعوره مما يكون سببا في سكينته وأمنه. والواقع أن هذا الإحساس أو الشعور المتواصل بفضل الأم في تحقيق راحة الطفل يمكن الأخير من اتخاذ مواقف منفتحة تجاه الآخرين حيث يستحسن قربهم منه وتعاملهم معه، ومعلوم أن الأم أول وسيط بين الطفل والعالم الخارجي تساعد الطفل على اندماجه الاجتماعي وتعلمه العلاقات الإنسانية وتغرس في نفسيته إحساس التعاطف والاتصال بالآخرين. إذا، يبقى الطفل في اتحاد وثيق مع أمه فيشكل معها "وحدة ثنائية"، ومن هنا، كانت "أهمية الأم الفيزيولوجية هي نقطة انطلاق التماسك الاجتماعي" (بدر شاكر السياب، 1974، ص203) وفيما يأتي نحاول الكشف عن القيمة الاجتماعية للفظـة "الأم" من خلال نماذج من شعر السياب، مع تأكيدنا على أن هذه المقاطع تشير في الوقت نفسه إلى المدلول الاجتماعي للأمومة، فاستنادنا إليها هو بهدف تبين أن السياب اتخذ من عاطفة الأمومة تعبيراً عن علاقته بواقعه تدليلاً على حاجة الشاعر إلى ضرورة التوافق مع النحن الاجتماعية وتدليلاً على مبدأ التوافق بينه وبين الآخرين. إذا، انطلاقاً من هذا المفهوم نرى أن "الأم" نمط وموضوع خارجي صور من خلاله السياب اتحاده بواقعه الاجتماعي. أي: إن دال "الأم" تضمن دلالات اجتماعية موضوعية مثلما دل على انفعالات السياب ورغباته الخاصة.

3. الأمومة ودلالة التوافق/ التواصل مع الآخرين:

إن حياة الفرد تردد رمزي بين الظاهرة البيولوجية والظاهرة الاجتماعية، وما يعجز عن تحقيقه الشعور الفردي يتمه اللاشعور الجمعي الذي له دور في نمو الشخصية، و"الأنا" يحقق مصالح الشخص في إطار كليته/مجتمعه من خلال احتكاكه بالواقع الخارجي، وتحقيق "الأنا" لهذه الوظيفة يكون عن طريق تماهي الفرد بالوالدين. ومن هنا، يمكن القول إن السياب حقق علاقته بمجتمعه من خلال تماهيه بعاطفة الأمومة باعتبار أن الأم تغرس في وجدان الطفل المثل العليا والعلاقات الإنسانية النبيلة وتحبب إليه حاجته إلى النحن/ (الجماعة). وهكذا يتشكل "الأنا الأعلى"

للفرد كركن من أركان شخصيته بفضل تماهيه بعاطفة الأم التي ترمز -هنا- إلى المثل العليا الجماعية، والفرد/ الشاعر-هنا- عندما يتخذ من الأم موضوعا للتماهي فإن ذلك يسهم في تكوين أركانه المثالية وبنائها، يقول السياب (ريمون كاربونتيه، 1984، ص5):

"أمن بلدي هارب؟ أي عار
وارتعش الماء وراء السفين
وهبت الريح من الغرب
تحمل لي دربي...
تحمل من قبرها ذر طين،
تحمل جيكور إلى قلبي"

تبدو لنا الأم في هذا المقطع الشعري موضوعا خارج الأنا السيابية/ خارج عالم الشاعر الداخلي، أو جزءا من العالم الخارجي/ عالم السوى، أي: خارج التصورات الذهنية الذاتية، والغير كما يرى "ريمون كاربونتيه R.Carbontier هو "إما أتباع لنا وإما أعداء. فالأتباع نعني بهم من نعتمد عليهم، ومن يتحقق اتفاقنا وإياهم طبيعيا وعضويا: بالتزواج، وبالعائلية، و بالمدنية..." (جميل صليبا، 1982، ص446)، والواضح أن أم السياب جزء من هذا الغير، أي: من أتباع السياب، لأنه يعتمد عليها بيولوجيا ووجدانيا واجتماعيا كذلك.

إن الأم في شعر السياب شكلت بالنسبة إليه موضوع جاذبية، أو موضوع حب شكل عام، أي أنها أمر تمثله السياب في ذهنه، ويعرف الموضوع بأنه "الشيء الموجود في العالم الخارجي، وهو ما ندركه بالحواس، وبتصوره ثابتا ومستقرا ومستقلا عن رغباتها وآرائنا، وتقابله الذات" (صلاح فضل، 1978، ص153) أي الموجود بذاته والمستقل عن معرفتنا به. والسياب عندما اتخذ من أمه موضوعا وعندما تردد هذا الموضوع كثيرا في ذهنه وشعره، أو من خلال عملية التجاذب الوجداني، فإن هذا الموضوع أصبح أنموذجا، ويعرف "يونغ" الأنموذج بأنه "المثال أو النمط الذي يعكس بطريقة متنوعة خواص نوع ما" (جبرا إبراهيم جبرا، 1980، ص65).

وانطلاقا من ذلك، كان السياب يرى في الأمومة مثالا أعلى ذا خواص، له فرادته وتميزه، ويبدو السياب أشد إعجابا بهذا التميز والفرادة، الأمر الذي جعل منه ذا

انطباع طيب إزاءه ومن ثم راح يتمثل خصائص هذا النموذج وسماته، ولما كان ذكر الشاعر لهذا الموضوع المختار (الأم) ذكرا ظاهرا وبارزا، فإننا نعتبر هذا الموضوع نمطا أعلى، والنمط الأعلى كما يعرفه "نورثروب فراي NothropeFrye" هو "صورة تتردد... رمز يصل بين القصيدة والقصيدة، وبهذا يسير التوحيد والتكامل في تجربتنا الأدبية" (بدر شاكر السياب، (د.ت.ط)، ص 221-222).

تمثل الأم بالنسبة للسياب أنموذجا مثاليا تجتمع فيه أكمل الصفات الذاتية، و كانت في نظره النمط أو المثل الأعلى الذي تعد الأشياء والعواطف والأشخاص صورا له، ولما كانت الأم على هذه النمطية العالية، فإن السياب وجد طاقته النفسية نحوها متماهيا بها. ثم إن "الأم" لما كانت على هذه الدرجة من التسامي والتعالي، فإنها كانت بالنسبة للسياب صورة ثابتة لا تتغير.. قد كانت هذه الصورة الأمومية مثالية سامية لدى السياب الذي اعتبرها نمطا أو أنموذجا اطمأن به عاطفيا وشعوريا.. ولذلك، فإن السياب عندما اختار هذا النمط وتماهى به إنما كان يهدف إلى تحقيق التوافق بينه وبين الآخرين، أو تحقيق التوافق بين هؤلاء وتوجيههم إلى تحقيق التوافق الاجتماعي، يقول السياب (عبد الجبار عباس، 1979، ص 87):

"كوني لغيلان رضى وطيبه

كوني له أبا وأما وارحمي نحيبه

وعلميه أن يذيل القلب لليتيم والفقير".

تتخذ الأم صورة الزوجة- زوجة السياب- وتظهر في أسمى معاني العلاقات الإنسانية وأقوى عواطف الترابط والتكافل والتماسك الاجتماعي، ونحن نلاحظ من خلال هذا المقطع الشعري كيف أن الإنسان -وبفضل حضور الحنان الأمومي- يعلو على كيانه الذاتي ليسعد المحرومين من مجتمعه، ولعل في هذا انتقالا من الانطوائية الذاتية إلى الاندماج الاجتماعي وبالتالي تجسد الشعور بالحقيقة الإنسانية من دون أن يذوب هذا الإنسان ذوبانا مطلقا في ذلك الكل الاجتماعي (محمد عباس عوض، 1980، ص 76).

إن ذلك المزيد من الاندماج يمكن الشعر من الشراء من حيث الأصالة الفردية مثلما يساعد على اكتشاف جوهر (الكل) على حقيقته الشاملة. وبعبارة أخرى، إن اندماج السياب في ذلك (الكل) من خلال التماهي بعاطفة الأمومة كان صيرورة شيين

مختلفين دون أن يعني هذا أن أحدهما صار شيئاً آخر، ما نعينه من ذلك أن يكون بين الشبيين علاقة يشتركان فيها مع احتفاظ كل منهما بهويته. وتبعاً لذلك، إن اتحاد السياب بنمط الأمومة نتج عنه اتفاقه وتوافق مع أبناء مجتمعه ومشاركتهم في الآراء والميول والأهداف. إن اختيار السياب لنمط أنموذج "الأم" كان حرصاً منه على استمرارية التوافق بينه وبين الأفراد في وسطه الاجتماعي، وكان تأكيداً للنزوع نحو الاندماج معهم، ولذلك نجده يعمد إلى تقمص كفايات موضوع خارجي، ككفايات شخص، والسياب يتقمص صفات جوهرية يفتقر إليها وجوده أو يحتاج إليها في بناء علاقته بعالمه، ولهذا نجده ينجح إلى التقمص الوجداني الذي يعرف بأنه "قدرة الفرد على إدراك وفهم مشاعر الآخرين ودوافعهم ووجهات نظرهم" (كلفن هال، 1970، ص93).

والأكيد أن هذه القدرة ضرورية لكل فرد يرغب في أن يظل التوافق قائماً بينه وبين من يعاملهم من الناس، مع الإشارة إلى أن الشخص الذي يتمكن من فعل التقمص فإنه يشبه هذا الشخص الذي يتقمصه، وهناك هدف آخر للتقمص وهو "تصريف توتر مؤلم مسبب عن الإحباط والعجز أو القلق" (كلفن هال، 1970، ص91). وإلى جانب ذلك، نجد أن السياب عندما تقمص الموضوع الضائع- أمه- فإن هذا دون شك يساعده في الاحتفاظ بالموضوع الحالي، ذلك أنه عندما يسمو بسلوكه مع الناس بالاندماج معهم، فإن هذا يعد استرجاعاً لعطف أمه المفقودة لأن حب الفرد لأمه يكون مستمراً في حياته، علماً بأن في الشخصية "في ثانياً نموها تصطبغ بصبغة كثير من الشحنات الانفعالية الموضوعية المفقودة" (رجاء عيد، 1986، ص77).

5. الأمومة ودلالة الإحساس بالحاجة إلى "نحن":

إن من الحاجات الإنسانية الضرورية خاصية "الارتباط" أو "الانتماء" أي: شعور الإنسان بأنه جزء من الجماعة، وكذلك "السمو" بمعنى أن يصبح إنساناً مبدعاً يسمو فوق طبيعته الحيوانية، لذلك فإنه من الخطأ أن نفصل بين الشعور الفردي الخاص، وشعور الآخرين، وشعور الجماعة لأن هذه الأطراف الثلاثة: الأنا، الآخر، والجماعة توجد على نحو من الارتباط والتبادل، وكما يرى "جировيتشGirovitch" إنه "من يوم لآخر يزداد تصورنا لوجود صلة بين ثلاثة أطراف هي "الأنا" و"الغير" و"نحن" باعتبار أنها مظاهر جوهرية لكل شعور

إنساني" (جان بول سارتر، 1984، ص45)، والفصل بينها معناه القضاء على الشعور بوجود تلك الصلة القوية بين تلك الأطراف. والمعروف أن الفنان يسعى عبر فنه إلى تنمية المشاركة بين أفراد مجتمعه، ومن هنا كان الفن نشاطا إنسانيا نرفع من خلاله جوهر العالم إلى مستوى الوعي المشترك بين الناس، والفن لا يكون اجتماعيا إلا إذا كان إنسانيا عاما وشاملا يعبر عن المحتوى الاجتماعي لوجوده، ولعل هذا مما دفع "سارتر" إلى القول إن "أحد الدواعي الأساسية للإبداع الفني يتمثل حقا في حاجتنا إلى الشعور بأننا ضروريون بالإضافة إلى العالم" (Roger caillois, 1987, p82).

ندرك مما سبق أن العمل الفني حتى وإن كان نتاج شخصية فردية فإنه منطوق الذات الاجتماعية ووليد بيئته، والشعر كفن من الفنون عندما يصف "الأنا" في الشاعر، إنما يصف الإنسانية جميعها، والشاعر إنما يعبر عن عواطف الإنسانية بمجموعها وانفعالاتها من خلال انفعالاته وعواطفه، فيكون الصدى الناطق لعصره. وبهذا، تكون حاجة الشاعر شديدة إلى "النحن" للحياة في مجتمع متكامل، بل هكذا تنتظم علاقة الشاعر بمجاليه الاجتماعي بحيث يبرز الشعور "الحاجة إلى نحن" على أن مشاركة الفرد في المجال الاجتماعي مفروضة حتما في شعوره باعتباره أن الإنسان "ليس معزولا في الطبيعة، ليس حالة خاصة لذاته" (بدر شاكر السياب، (د.ت.ط)، ص203)، إن الفنان يكون إنسانيا لأنه يتمثل في وجدانه قيم المجتمع وعاداته فتتكون اتجاهاته وميوله وعواطفه، والفنان يعيش وينشأ في إطار اجتماعي معين له تذوقاته الخاصة، تنعكس في وعيه قضايا مجتمعه وهمومه وتتفاعل مع تجربته.

في ضوء ما سبق، نعتبر الأمومة في شعر السياب تعبيراً عن حاجات موضوعية واجتماعية فضلا عن أنها تعبير عن حاجات ذاتية، ذلك أن السياب اتخذ من عاطفة الأمومة أداة فنية لتأكيد توافق انشغالاته مع انشغالات أفراد مجتمعه، إنه اتخذ منها وسيلة لتصوير أشكال العلاقات الاجتماعية التي تربطه بعالمه وبالأخرين وبالتالي، فإن شعره حدث اجتماعي يصور مدى الترابط بين السياب ومجاليه الاجتماعي، يقول (هنري لوفاجر، (د.ت.ط)، ص58):

"أ من بلدي هارب؟ أي عار
وارتعث الماء وراء السفين
وهبت الريح من الغرب

تحمل لي دربي...
تحمل من قبرها ذر طين،
تحمل جيکور إلى قلبي
يا ريح يا ريح
توهجت فيك مصابيح

واضح من هذا المقطع كيف أن "الأم" - أم السياب - وقد نفثت إليه من قبرها - تستشعره بضرورة الإحساس بالآخرين، أهله بقرية جيکور، وجيکور ما هي إلا صورة مصغرة عن مجتمعه (العراق)، والفن، كما يرى "بليخانوفBlekhanov" " إحدى (أحد) وسائل التقارب الذهني والفكري بين الناس" (مصطفى سويف، (د.ب.ط)، ص337)، من خلال ربطه بين مشاعر الناس مما يدل على التعاطف بين الذات المنتجة للفن وبين أفراد البيئة الاجتماعية. إنه من الطبيعي أن يتمثل السياب مثل مجتمعه العليا وقيمها الإنسانية وفي مقدمتها الإحساس "بالحاجة إلى النحن" بوصفه دافعا إلى تحقيق التوافق الاجتماعي. من هنا، فإن شعر السياب عبر عن مطلبه المجتمعي الذي يتجلى في تعلقه بالذات الجماعية، ولعل هذا ما يعني أن ذات الشاعر المبدعة لم تكن منعزلة - في مطامحها واهتماماتها - عن "النحن"، فهي تسعى إلى الاقتراب من الواقع الاجتماعي لشعورها بأنها جزء منه، ولهذا - وكما يرى مصطفى سويف - إن الشاعر العبقرى " شخص تصدع شعوره بالنحن السائدة، فبرز لديه شعور بالحاجة لنحن جديدة تتضمن علاقات جديدة في مجاله الاجتماعي" (سامي الدروبي، 1981، ص142) وهذا معناه أنه لا يمكن الفصل بين "الأنا" و"الغير" و"النحن" في عمل أدبي، والتأكيد على وجود الارتباط بين هذه الأطراف الثلاثة إشارة إلى وجود المبدع في خضم الآخرين مما يترتب عنه تحقيق علاقات بينه وبينهم، ونقصد بالعلاقات "وجود تفاعل بين المبدع والآخرين. وإننا نعني بالتفاعل حدوث تأثيرات متبادلة بين المبدع والآخرين" (أندريه جيد، 1988، ص53).

يمكن القول في ضوء ذلك بالتداخل بين الذاتي والموضوعي في شعر السياب من خلال دلالة لفظ "الأم"، على أن اندماج الشاعر في الجماعة هو بحث عن التلذذ أو الملجأ، لقد كانت الذاكرة الجماعية ماثلة في الذاكرة الفردية والعكس، ومن ثم تحققت تلك الوحدة المتماسكة أو الكل الذي ندعوه "نحن" من خلال التعاطف أو الكل الذي

ندعوه "نحن" من خلال التعاطف والتقمص المتبادل، وهكذا تتجسد علاقة انصهار "الأنا" بـ "النحن" أو "الذات" بـ "الموضوع"، وهذا يعني أنه لا قيمة للعمل الأدبي إذا تجرد من قضايا الأديب العامة. إذا، وفي إطار ذلك، حاول السياب بلوغ هدف التكامل الاجتماعي مع الآخرين مندفعاً ومدفوعاً بضغوط هذه الحاجة ومحاولاً- محاولات عديدة- لأجل تحويل الموقف من "أنا والآخرين" إلى "نحن"، فكان بذلك "أنا" السياب قوة لا تتجزأ من كل غير منفصل عن سائر الأنوات، وتوحد السياب مع الجماعة كشعور بـ "بالحاجة إلى نحن" عامل مهم من عوامل اتزانه السيكولوجي وقد استدعى هذا ألا يكون "أنا" الشاعر حبيس نفسه للدفع بشخصيته إلى درجة أرقى، من منطق أن "التضحية المتألفة بالوعي الكامل، الخالية من كل إكراه، هي التضحية في سبيل المجموع... هي مؤشر على بلوغ الشخصية أقصى درجات النمو والتفوق والسيطرة..." (بدر شاكر السياب، (د.ت.ط)، ص132) وفق ما سبق، نتبين أن صورة الأم، الحاضرة في ذهن السياب وذاكرته، كانت مؤثرة في أعماق نفسيته، فهي التي كانت وراء ميله نحو التكيف مع عالمه كونها رسمت انفتاح أنه على مجتمعه، وهي التي نمت لديه الإحساس الإنساني النبيل، وهي التي أخرجته من دائرة القوقعة والانطوائية إلى دائرة التوافق الاجتماعي.

غير أن السياب قد أدرك أواخر حياته، أن غياب الأم كان سبباً في ركن "الحاجة إلى نحن" بوصفه ركناً هاماً من أركان التوافق الاجتماعي يسمو بالإنسان من طبيعته الحيوانية إلى الطبيعة الاجتماعية والإنسانية القائمة على "الارتباط" و"الانتماء"، وبغياب أو تصدع هذا الركن لم يكن بوسع الشاعر أن يذوق نشوة التبادل بين الفردي والجماعي. وهكذا، تلاشت تلك الوحدة المتماسكة التي تآقت إليها ذات الشاعر فبقيت رهين فرديتها تتجرع آلامها ومصيرها المأزوم، وبدل أن يكون السياب أكثر اقتراباً من "الآخرين"، كان افتراقه عنهم يقول الشاعر (ر.م. ألبيريس، 1983، ص90):

وتسمع ضجة الأطفال أم ثلاثة ضاعوا

يتامى في رحاب الأرض: إن عطشوا وإن جاعوا

فلا ساق ولا من مطعم، في الكوخ ظلوا واعتلى النعش

رؤوس القوم والأكتاف... أفئدة وأسماع

ولا عين ترى الأم التي خلا منها العش

لم يعد السياب يهمله "الآخرون" بقدر ما أصبح يهمله مصيره هو، كان- في هذه المرحلة- حبيس وجدانيته الفردية، ولعل هذا ما جعله عاجزا عن أن يحب شخصا غير نفسه.

6. الأمومة ودلالة التسامي/التماهي الاجتماعي:

حاول السياب السمو بشعره من خلال عاطفة الحب الأمومي سموا راقيا نحو التوافق الاجتماعي بحكم الوحدة الثنائية التي شكلها وأمه، وبحكم عامل التنشئة الاجتماعية كذلك. عظمة الفن الحقيقي-ومنه الشعر- هي أن تجعلنا نتعرف على ذلك الواقع الذي نعيش بعيدا عنه، وهذا الواقع- كما يرى "مارسيل بروسست Marcel proust"- هو بكل بساطة حياتنا، الحياة الحقيقية... تلك الحياة التي تسكن بمعنى ما، في كل لحظة لدى جميع البشر كما لدى الفنان (مصطفى سويف، (د.ت.ط)، ص149). وهكذا يكون الفنان قادرا على أن يتحرر من ثقله الذاتي عندما ينفصل عن ذاته ويعطو عليها. ويعني هذا أن الفنان لا قيمة له بالنسبة للعمل الفني، وهو عندما يحطم نفسه في عملية الفنان إنما يساعد على إعلاء العمل الفني. والفنان حين ينتج عمله الفني يختزل فيه رؤيته للواقع، وهي رؤية عميقة تجذرت في انطباعاته التي تراكت عبر مشاعره ومعاشراته الحياتية وعكسها بأشكال مختلفة مفيدة وممتعة، ولعل هذا ما جعل "كارل ليفن K.Lewin" يقول إن "معظم النشاط البشري، لاسيما النشاط المدفوع، أي الذي تكمن وراءه دوافع معينة، يكون له مظهر "الكل" و"التنظيم" (روجه باستيد، 1988، ص138).

نخلص من ذلك إلى أن "التسامي" عملية مؤدية مباشرة إلى الإبداع الفني، فهو يضاف إلى الخبرة اللاشعورية في الفن، و"التسامي" مثل مصطلح السمو" يستخدم في الفنون للدلالة على الإنتاج الذي يوحى بالعظمة والرفعة، ذلك أن التعبير عن الغرائز يتحول إلى أشكال تبدو في الظاهر غير نرجسية، أي: ذات أهداف رفيعة ومتسامية مع الإشارة إلى أن عملية "التسامي" هذه تخفف من حدة التوتر. إن "التسامي" نشاط إنساني لا صلة له بالدوافع الغريزية، فهذه التسمية تطلق على النزوة بمقدار تحولها إلى هدف جديد غير نرجسي، حيث إنها تنصب على حب موضوعات ذات قيمة اجتماعية(بدر شاكر السياب، (د.ت.ط)، ص190) ، على أن النرجسية ليست حب الذات، لأن النرجسي يبدو غير قادر على حب نفسه إلا مع محبة الآخرين، لذا يقال

عنها إنها "توسع الشخص بالذات من خلال ردة فعله تجاه (الإجحاف) المقبول في العلاقات مع الغير.

إن السياب الذي كان مدفوعا دفعا قويا بنزواته البيولوجية لإحساسه بأن بقاءه مهدد بفعل فقدانه أمه منذ طفولته، ونظرا لإحباطاته وانهزاماته مع "الآخر"، ونظرا لتجربته المرضية، بحكم ذلك وغيره، هدف السياب إلى إشباع مطالب شخصية لكنه عندما اتخذ من "الأم" -الموضوع المفقود- وسيلة دفاعية للتخفيف من قلقه وصراعه، إنه في هذه الحال نجده قد تسامى عن نزواته الشخصية لأجل بناء علاقات مع الغير. يقول الشاعر (روحيه باستيد، 1988، ص138):

"أفياء جيكور أهواها

كأنها انسحرت من قبرها البالي،

من قبر أمي التي صارت أضالعا التعبي وعيناها

من أرض جيكور .. ترعاني وأرعاه"

يعود السياب إلى الماضي -جيكور- من خلال حلم وصل بينه وبين الحاضر، ثم نجده يحلم بوصال في المستقبل. وعندئذ تبدأ صورة الأم بالظهور، وهي صورة تتمزج بصورة الوطن الذي يتحول إلى أم للشاعر، لذلك فهو يهوى هذا الوطن كونه أما له لأن الأمة أو الوطن امتداد للعائلة، حيث إن العلاقة "بين الدولة والمواطن هي نسخة صادقة عن العلاقات بين الابن والأب، كما تعتبر العلاقات بين الفرد ووطنه توافعا للعلاقات مع الأم" (جان لابانش، 1985، ص430). إن السياب قد تعالى بشعره عن دوافعه البيولوجية أو حاجاته الأدنى لاعتقاده أن في محبته للآخرين وعودته إليهم تحقيقا لرغباته، وإدراكه أن الخضوع لنزواته الذاتية والاهتمام بتحصيلها مشروع أني لا يحقق له لذة أمثل، وبالتالي استعاض المطلب البيولوجي بالمطلب الاجتماعي، والواقع أن السياب في تماهيه بعاطفة الأمومة يكون قد أحب ذاته من جهة وأحب الآخرين من جهة أخرى، أي: إنه اتخذ من ذاته موضوعا له، وهذا ما يسمى بـ "ليبيدو الموضوع"، مع الإشارة إلى أن هناك توازنا طاقويا بين هذين الأسلوبين في التوظيف ذلك أن "ليبيدو الموضوع" يتضاءل حين يزداد "ليبيدو والأنأ" والعكس بالعكس.

هذه هي جدلية "الأنأ" و"الآخر" التي عكستها عاطفة الأمومة في شعر السياب، وهي جدلية أوضحت أن السياب لا يستطيع العيش إلا مع الآخرين، ولقد تجلت عملية

التماهي (identification) لعملية نفسية تمثل بها السياب خصائص أمه أولاً وصفات الآخرين من محيطه الاجتماعي، على أن بتماهيه مع صفات الآخر إنما كان بهدف إدماج مطالبه ونزواته في "الموضوع" (الأم، الآخرون)، إن ما دفع السياب إلى التسامي فوق نرجسيته والتماهي بالآخرين هو إدراكه عدم إمكانية وجود حياة محتملة إلا في علاقته بهؤلاء. يفهم من الأم مثالا للتواصل والتوافق مع الآخرين انطلاقاً من أنه كان يشكل مع أمه "وحدة ثنائية" مما وجهه إلى بناء علاقاته مع "الآخرين".

نستنتج من ذلك أن السياب لجأ إلى موضوع هوامي هو الأمومة لأجل تخفيف من توتره وقلقه وإحباطه، ونشير هنا إلى أن "الموضوع" في علم النفس التحليلي هو الشخص أو الشيء الذي تتجه نحوه الطاقة الغريزية أو الشحنة الانفعالية، ويكون هذا الموضوع لإشباعها، على أن موضوع طاقة الغريزة يكون أحد الأشخاص المقربين إلى الطفل، أي الأم والأب (سيجموند فرويد، 1986، ص 53). وما يجب الإشارة إليه أن السياب ظل متشبثاً بموضوع حبه الأول إشباعاً له.. والسياب في انتقالاته تلك كان يسعى ليحقق أهدافاً سامية بتحرره عن أهدافه الغريزية الذاتية فتجاوز ذلك رغباته غير النرجسية حرصاً على بناء علاقته بالآخرين. وهكذا، انصب اهتمام السياب على حب "موضوعات" ذات قيمة اجتماعية ولعل هذا ما كان سبباً في نمو الشخصية السيابية حين انتقلت طاقتها النفسية من موضوع إلى آخر.

7. خاتمة:

إضافة إلى أن السياب اتخذ من لفظة "الأم" طريقة أدائية للتعبير عن الجانب الانفعالي لعالمه الداخلي، فإنه كذلك اتخذ منها وسيلة فنية لتصوير وعيه وإحساسه بانتمائه وتعلقه وارتباطه الاجتماعي من منطلق أن الأم منبع أول للثراء النفسي حيث المشاعر والتعلقات العاطفية والميول والاتجاهات التي تؤهل الفرد – وهنا الشاعر- للشعور بالحاجات والغايات الاجتماعية، والأم هي الوسيط بين الطفل والعالم الخارجي تمكنه من اتخاذ مواقف منفتحة تجاه الآخرين لأنها تغرس في نفسه حماس التعاطف مع هؤلاء. وبالجمل، حقق السياب وجوده الاجتماعي من خلال تماهيه بالحنان الأمومي باعتبار أن الأمومة تمثل المثل العليا، ذلك أنه اختار من الأم موضوعاً أو نمطاً أعلى أسهم في تكوين الأركان المثالية لديه، كما أنه تسامى بطبيعته الحيوانية إلى طبيعته الاجتماعية والإنسانية التي تتمثل في قيم مثل "الارتباط" و"الانتماء" و"التوافق"..

وفي الأخير، نقول إن الأمومة في شعر السياب قد أبانت عن حقيقة التداخل بين الذاتي والموضوعي، بين الفردي والجماعي.

5. قائمة المراجع:

المؤلفات:

1. جبرا إبراهيم جبرا، (1980)، الأسطورة والرمز (دراسات نقدية)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
2. جمعة حسين، (1983)، قضايا الإبداع الفني، دار الآداب، بيروت، ط:1.
3. حسن عبد الكريم، (1983)، الموضوعية البنيوية (دراسة في شعر السياب)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط:1.
4. الدروبي سامي، (1981)، مقدمة لعلم النفس الأدبي، دار المعارف، القاهرة، ط:1.
5. سويف مصطفى، (د.ت.ط)، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر الخاصة، دار المعارف، القاهرة، ط:4.
6. السياب بدر شاکر، (1974)، الأعمال الكاملة، المجلد الأول، تحقيق: ناجي علوش، دار العودة، بيروت.
7. السياب بدر شاکر، (1974)، الأعمال الكاملة، المجلد الثاني، تحقيق: ناجي علوش، دار العودة، بيروت.
8. صليبا جميل، (1982)، المعجم الفلسفي (ج:2)، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
9. عباس إحسان، (1983)، بدر شاکر السياب، دراسة في حياته وشعره، دار الثقافة، بيروت، ط:5.
10. عباس عبد الجبار، السياب، (1979)، دار الشؤون الثقافية العامة - وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.
11. عوض محمد عباس، (1980)، في علم النفس الاجتماعي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.
12. عيد رجاء، (1986)، فلسفة الالتزام في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، منشأة المعارف، الإسكندرية.
13. فضل صلاح، (1978)، منهج الواقعية في الإبداع الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

14. ماضي شكري عزيز، (1984) محاضرات في نظرية الأدب، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، ط:1.
15. ألبير سيرم، (1983)، الاتجاهات الأدبية الحديثة، ترجمة: جورج طرابيشي، منشورات عويدات، بيروت/باريس: ط:3.
16. باستيد روجيه، (1988)، السوسيولوجيا والتحليل النفسي، ترجمة: وجيه البعيني، دار الحداثة، بيروت، ط:1.
17. جيد أندريه، (1988)، دوستوفسكي (مقالات ومحاضرات) ترجمة: إلياس حنا إلياس، منشورات عويدات، بيروت/باريس، ط:1.
18. سارتر جان بول، (1984)، ما الأدب؟، ترجمة، محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت.
19. فرويد سيغموند، (1986)، معالم التحليل النفسي، ترجمة: محمد عثمان نجالي، دار الشروق، القاهرة، ط:6.
20. كاربانتيه ريمون، (1984)، معرفة الغير، ترجمة: نسيم نصر، منشورات عويدات، بيروت/باريس، ط:3.
21. لابلاتش جان، و.ج.ب. بونتالسي، (1985)، معجم مصطلحات التحليل النفسي، ترجمة: مصطفى حجازي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط:1.
22. لوفاجر هنري، (د.ت.ط)، علم الجمال، ترجمة: محمد عيتاني، دار الحداثة، بيروت.
23. هال كلفن، (1970)، أصول علم النفس الفرويدي، ترجمة: محمد فتحي الشنيطي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.
24. Caillois Roger, (1987), l'homme et le mythe, Gallimard.